أوراق المجلة الدولية للدراسات الأدبية والإنسانية ـ مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة ـ جامعة باتنة1 ـ الجزائر
EISSN....-.... ISSN 2773-2940 المجلد 03 العدد 02 (سبتمبر ،2021) ص229 إلى 254

جدلية المركز والهامش في الرواية الجزائرية

The Controversial Center and Margin in the Algerian Novel

ط. د.نعيمة دبار*

جامعة عنابة،naimadebbar20@gmail.com

تاريخ الإرسال	2021/07/07م	تاريخ القبول	2021/08/20م

ملخص

أبدع الروائيون الجزائريون في فن السرد، وتفننوا في نظم بنى الرواية، وتعد الرواية ديوان العرب الجديد. يهدف هذا المقال إلى الالتفات إلى عالم السرد الروائي الجزائري بغية فهم أنساقه الثقافية ونماذجه الإنسانية، ثم وصلها بواقع المجتمع الجزائري.

لقد تم تطبيق منهج النقد الثقافي كونه الأنسب لتحليل وفهم النماذج الإنسانية المهمشة والمهيمنة في الجزائر، وإدراك المعوقات الثقافية التي حالت دون إحداث نهضة حقيقية في الجزائر.

وقد توصلت من خلال هذا المقال إلى حقيقة أن الرواية الجزائرية تمتاز بالخصوبة والرواء، كونها لا تكتفي بمحاكاة الواقع والتاريخ فحسب، بل يقف كاتبها موقف الناقد الذي يسعى إلى إحداث التغيير، لذا تمكنت من كشف المستور، وتعرية الحقائق التي زيفت وطمست، كما كانت لسان حال الطبقات الهشة والمهمشة التي مورست عليها أبشع صنوف الاستغلال والتسلط.

الكلمات المفتاحية: المهمشون؛ المعوقات؛ الرواية؛ الدوغماتية؛ الأنساق.

Abstract

Algerian novelists not only mastered the structure of the novel but excelled in the art of narration as well. The present investigation aims to giving importance to the world of Algerian narrative fiction to better understand its cultural patterns and human models; and then connecting them to the reality of Algerian society. The cultural criticism approach has been applied being the most appropriate for the analysis and understanding the marginalized and dominant human models in Algeria; and realizing the cultural obstacles that prevented a real renaissance in Algeria. The analysis of results reveals that the Algerian novel is characterized by fertility and narration. It does not simulate reality and history but rather its writer is a critic who seeks to bring about change. Therefore, it uncovered the hidden, exposed the falsified and obliterated facts. It was the mouthpiece of the fragile and marginalized classes on which the worst forms of exploitation and domination were practised.

Keywords: marginalized; obstacles; novel; dogmatism; structures

*المؤلف المرسل

1.مقدمة

أفضت الدراسات الثقافية إلى بروز أنساق فحولية طاغية وضمور أخرى، وحلول البعض محل الآخر، لذا يتطلب تحليل الرواية الجزائرية الاستعانة بآليات النقد الثقافي لإبراز مكنوناتها وأبعادها الثقافية، إذن، ما المقصود بالطبقة العليا السلطوية والطبقة المهمشة؟

ما هي أبرز المعوقات التي حالت دون إحداث نهضة ثقافية في الجزائر؟

فهل برزت هذه الثنائية في ظل غياب الحكمة الإنسانية الرادعة لمختلف أشكال التمييز والعنصرية والتفرقة؟

يعد النقد الثقافي من المناهج الحديثة التي أسهمت في الكشف عن عيوب الخطاب الثقافي، وعرت حقائق المجتمع، لذا يعتبر المنهج الأنسب لنقد الثقافة المهيمنة والمهمشة، كون المقال يهدف إلى إبراز المعوقات الثقافية في المجتمع، بالإضافة إلى تسليط الضوء على الطبقات المهمشة والمقهورة في الجزائر.

2.المعوقات الثقافية في الجزائر

ليست الحياة السياسية وحدها ما صنع الأزمة الخانقة في الجزائر، بل هناك معوقات شكلت مرجعيات تعسفية أدت إلى الاحتقان الثقافي منها:

1.2المرجعية الدوغماتية

الدوغماطيقية dogmatisme

هي إثبات قيمة العقل وقدرته على المعرفة، والوصول إلى اليقين، والدوغماتية ترى أن العقل الإنساني لا يقف عند حد، وقد سادت هذه النزعة في القرنين 17و18م، لكنها تعرضت للنقد اللاذع من قبل كانط، ثم استعملت للدلالة على التسليم دون تمحيص". (زايد وآخرون، 1983: 85).

كتب (الطاهر وطار) روايته الشمعة والدهاليز سنة 1995، وقد استهل عمله بالفقرة الآتية: "إنما إبليس رفض الاعتراف بالتعددية، فتشبث بأن لا

يسجد لغير الواحد، وبذلك أعطى للصفر قيمة تضاهي قيمة الواحد، بل أكثر من ذلك، جعل الواحد يفقد قيمته، يفقد قيمته إذا انعدم الصفر، فتحول كل ما عدا الواحد إلى صفر، وكل ما عدا الصفر إلى واحد" (وطار، 1996: 7).

يستعمل (وطار) إبليس كرمز وجودي، حين يروي حادثة من حوادث الأزل، لما يختار الكائن مكانته الوجودية ضمن نسيج الموجودات، ويعرض رؤيته الخاصة عن الكينونة والعدم، آثر هذا الكائن الناري عبادة الذات والتمركز حولها، ودحض الذات الإلهية، وعدم الاعتراف ب بالله كخالق واحد معبود، ليؤله ذاته، وينصبها سلطانا على البشر دلالة على التمرد.

يبين وطار في روايته الإرهاصات الأولية التي أدت إلى الأزمة حين بدأ التجمهر من أجل تغيير نظام الحكم وإعلاء راية الإسلام المزعومة، فقد ورد في الرواية: "كانوا في ساحة أول ماي التي أطلقوا عليها اسم ساحة الدعوة آلافا مؤلفة يرتدون قمصانا بيضاء، ويضعون على رؤوسهم قلنسوات بيضاء متساوية الأحجام، مثلما هم متساوو السن والقامات، واللحى المتدلية، لا يدري المرء إن كانت اصطناعية أو طبيعية يتشبثون بمواقعهم أمام الغزو المتتالي لقوات الشرطة، التي تقذفهم بقنابل الغاز المسيل للدموع، بينما أصواتهم تتعالى لا إله إلا الله محمد رسول الله عليها نحيا وعليها نموت وعليها نلقى الله" (وطار، 1996: 14).

بدأ نضال الجماعات الإسلامية بطريقة ديبلوماسية، وكان الهدف من وراء ذلك هو تحقيق ما يسمى الإحياء الديني، من أجل تأكيد الهوية الذاتية وسط زخم من الهويات، لاسيما وأن غالبية الجزائريين من مختلف الطبقات والدرجات قد اتبعوا الأسلوب الغربي في اللباس واللغة والتعامل، حتى غابت الهوية الحقيقية للأمة الجزائرية التي تدين بالإسلام وتتكلم العربية وتتعامل بمبادئ العقيدة وقيمها، بمنأى عن الثقافة الدخيلة التي استباحت المحرمات وأضاعت

مكارم الأخلاق، فبدأ التغيير الأول من المظهر الخارجي الذي يبدو فيه الإخوة الإسلاميون بعباءات وقلنسوات بيضاء، واللحى المتدلية، تلك العلامات الثقافية البارزة والمميزة قد وسمت شخصية هؤلاء، وأظهرت ملامح الهوية لديهم، وقد سعوا إلى إرساء دعائم الخلافة الإسلامية ليعود العصر الذهبي لأمة الإسلام، كما جاء في الرواية "وقد ظل خطباء الحركة الوطنية يتقربون إلى الشعب بالخطاب الديني" (وطار، 1996: 26).

كما ورد أيضا "ستوقد شمعة الخلافة إن شاء الله رب العالمين، من هنا من المغرب الأوسط من جزائرنا الحبيبة لتعم نورها على الجميع" (وطار، 1996: 24).

وصف الكاتب الجماعات الإسلامية بالأعراب الذين أتوا من الأرياف والبوادي، فخلعوا اللباس الأوروبي وارتدوا الزي الإسلامي، غير أن هذا القذف في حق هؤلاء قد يعد إجحافا، بل وعنصرية تنم عن عقل قاصر لا يعطي الأشياء حقها، فإن كان للدوغماتية التعسفية وجود في الجزائر فإنها ظاهرة عامة يشترك فيها القاصي والداني من العوام ومن الخواص، ومن أهل البدو والحضر، ولطالما كان أهل البادية ممن يتمتعون بأصالة متفردة ونخوة مميزة، وفضائل كثيرة، ولطالما ارتبط أهل الحضر بالتفسخ وسوء الطبع والخيلاء، ويبقى الأمر منوطا بشخصية الفرد نفسه من دون النظر لانتمائه الجغرافي، وإن كانت الدوغماتية معتقدا مرتبطا بالدين، فإن الإسلام منها بريء.

إذن، من الإنصاف الفصل بين الإسلام كعقيدة سمحة لها قيمها الجليلة القائمة على الاعتدال والعقلانية وبين أولئك المتحزبين الأصوليين الذين استعملوا الدين كوسيلة، فاستغلوا عقلهم الأداتي ببعده الواحد للتوسع والهيمنة، لذا خضعوا لنسق ثابت من القيم تحركه مرجعيات عقائدية دوغماتية فشلت في تفعيل العقل التواصلي الذي يحفز على البناء لا على الهدم، فضاعت الطاقات البشرية في هرطقات لا طائل منها، وتلاسن لا منفعة فيه، فظهر

التطرف و"التطرف في الدين يتبع السياسة دوما، فعندما تمارس السياسة في الدين على مستوى العقيدة يكون التطرف في ميدان العقيدة، وعندما تمارس السياسة في الدين على مستوى الشريعة يكون التطرف في ميدان الشريعة" (الجابري، 1996: 150)، وفكرة الدين تأسست عليها حضارات العالم، ومن بينها الحضارة الإسلامية التي حاول المتعصبون إحياءها، غير أن الحضارة الحقة التي تعتمد على الفكرة الدينية وتحولها إلى منظومة فاعلة كما فعل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه تضمن لكيانها البقاء والاستمرارية إذا عرفت مقوماتها الفعلية وإمكاناتها ، في ظل الأصول والثوابت التي تنادي بها، لا شك أنها ستكفل حياة أفرادها على الرغم من الاختلافات العرقية والفكرية والإيديولوجية، لاسيما في مجتمع يدين كله بالإسلام، وهذا هو المعنى الحقيقي للثقافة باعتبارها ممارسة للنظرية الدينية والفكرية والمعرفية.

وقد أدى التشبث بالموروث الديني والعقدي وفهمه فهما خاطئا إلى الغلو، حتى صار كل جديد بدعة، ومن هذا المنظور ظل الفكر الإسلامي حبيس الوهم، لا يقيم وزنا للعلوم والمعارف وكأن المعرفة لديه معرفة قبلية قد سبق الغرب.

في رواية فوضى الحواس تعرض الروائية حيثيات حقبة التسعينيات من خلال شخصياتها الافتراضية التي تبدو باهتة الملامح، فتتلاعب الروائية باللغة الأدبية لتحدث استجابة انفعالية لمجرد اصطدام القارئ بالنص للوهلة الأولى ليكتشف بعد قراءات متعاقبة أنه يتعامل مع قصيدة نثرية غرضها إذهال المتلقي بالجمال اللغوي الظاهر، تغذيه روح شاعرة خبيرة بخبايا المرأة، وتعرض الروائية التجارب والأحداث في الرواية من خلال تصويرها لموضوع الخيانة الزوجية، والانفعالات والنوازع الشبقية الناتجة عنها، وتتشدق بالكلمات الرنانة ونموذج ذلك ما ورد في روايتها: "ها هما جالسان إلى الطاولة المقابلة للذاكرة، هناك حيث

ذات يوم على جسد الكلمات أطفأ سيجارته الأخيرة ثم عندما لم يبق في جعبته شيء دخن كل أعقاب الأحلام وقال... لا تذكر ماذا قال بالتحديد قبل أن يحول قلبها مطفأة للسجائر ويمضي" (مستغانمي، 2013: 4)

جاء في الرواية "سائق الأجرة الذي طلبت منه مرافقتي إلى المقهى بدا عليه شيء من الاندهاش جعلني أعتقد أن لا وجود لهذا المقهى، غير أنه سألني إن كنت أقصد المقهى القائم بجوار حي الفوبور، أجبته بالإيجاب لكنه راح يمد معي حديثا عن الأوضاع الأمنية وعن شرطي ألقوا به ليلة البارحة من الجسر، وعن فتاة ورفيقتها اختطفتا أثناء عودتهما من المدرسة وذبحتا" (مستغانمي، 2013: 24).

يعتبر الخطاب الديني الذي تعتمده الجماعات الإسلامية الحزبية كحماس أو الجبهة الإسلامية للإنقاذ أو النهضة أو غيرها خطابا براغماتيا

، نظرا لبعده الإشهاري الدعائي، فإذا ارتبط الدين بالسياسة فإنه يفقد جوهره الروحي لاسيما حين تطغى المصالح الشخصية، كما حدث بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم حين حدثت الفتنة الكبرى التي كادت تقضي على الأمة الإسلامية، وتعد الدوغماتية الناتجة عن التطرف الديني إستراتيجية دفاعية ضد التيارات الأخرى، وأسلوبا مدروسا لممارسة فعل السياسة والانخراط فيها، و"التطرف في الإسلام كان دوما نوعا من التعبير عن موقف سياسي معين، فالسياسة كانت تمارس باسم الدين، وتلتمس الشرعية منه، مما جعل الصراع السياسي يجري تحت مظلة الدين في الغالب" (الجابري، 1996: 152).

فالإسلام يدعو إلى الخير، ويحث على التوجيه و"التوجيه هو تجنب الإسراف في الجهد وفي الوقت، فهناك ملايين السواعد العاملة والعقول المفكرة في البلاد الإسلامية، صالحة لأن تستخدم في كل وقت، والمهم هو أن ندير هذا الجهاز الهائل المكون من ملايين السواعد والعقول ، وهذا الجهاز حين يتحرك فإنه يحرك مجرى التاريخ" (بن نبي، 1986: 78).

إن كان الغرب اليوم ينظرون إلى الإسلام نظرة دونية، فإن لهم المبررات التي تجعلهم يتصورون هذا الدين شريعة القتل والإرهاب والتطرف، "فالإسلام يعتبره أنصاره دين الهداية السماوية، وإنه الدين الصالح لكل زمان ومكان، وإنه الدين الكامل، وإنه يشمل الدنيا والآخرة، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإنه جرى تصويره من قبل أعدائه على أنه دين متخلف ورجعي يغذي التطرف والإرهاب وعدم التسامح" (جلال، 2004: 55).

إن الأهداف النبيلة لا تتحقق بالتعسف والعنف والراديكالية المجحفة، لأن الغاية النبيلة لا تبررها الوسيلة القذرة.

2.2 الطابوهات بين التقديس والتدنيس

تعد الطابوهات الثلاثة: السياسة والجنس والدين من المواضيع الدسمة التي تثير شهية الكتاب، غير أن بعض الروائيين يصمتون عن الطابوهات، ونموذج ذلك (عبد الله عيسى لحيلح) الذي غيب دور المرأة كعنصر فاعل ومحرك في رواياته، وإن كان ظهورها في صورة المومس في لفتة خاطفة لا تكاد تذكر، وللكاتب أسبابه، فهو رجل الإصلاح الديني، وأحد أعضاء الجبهة الإسلامية، إذ لم يتمكن الكاتب المتدين أن يتملص من المرجعية الدينية التي تحتم على الشخص أن يلتزم الاستقامة والاعتدال، فلم يحذ حذو غيره من الروائيين الجزائريين مثل (الطاهر وطار) أو (واسيني الأعرج) أو (أحلام مستغانمي) الذين أسهبوا في الكثير من الروايات في وصف المشاهد الجنسية بمختلف أشكالها، فكان حضور المرأة فيها طاغيا كما هو حضور الرجل، لذا اكتفى لحيلح في كراف الخطايا بتجسيد صورة المثقف ودوره، وواقع الجزائر السياسي، ومن هذا المنظور يمكن عد الجنس من المعوقات الثقافية أو من الأنساق الاجتماعية التي شكلت عائقا لم يستطع لحيلح تجاوزه.

وبالمقابل تعرض (أحلام مستغانمي) المشاهد الجنسية، وبالرغم من رسوخ النسق العرفي من تميز المرأة بالحياء إلا أن الأمر قد اختلف ولعل نمط المعيشة قد أثر على الذهنيات، فلحيلح ابن مدينة جيجل، والمعروف عنها أن سكانها محافظون ملتزمون بعاداتهم وأعرافهم، وهذا ما يستشفه الزائر للمدينة، وقد مكث فيها لحيلح جل حياته، وحين غادرها احتضنته الجماعات الإسلامية في جبال جيجل، لذلك انعكست حيثيات البيئة الاجتماعية، في حين انطلقت (أحلام مستغانمي) في الآفاق، فانتقلت من قسنطينة التي تختمر فيها الأصالة بالمعاصرة، ثم احتضنتها لبنان، وبعدها اندمجت في المجتمع الفرنسي، لتلفي الفضاء الأرحب لرواياتها الجريئة التي تحرك الغرائز وتثير النوازع، ومن ذلك ما ورد في الرواية: "كيف أقنعك أنني أصبحت عبدا لصوتك عندما يأتي على الهاتف؟ عبدا لضحكتك، لطلتك، لحضورك الأنثوي الشهي، ...لكل شيء لمسته أو عبرته يوما... أتراه عطرك الذي كان يخترق حواسي ويشل عقلي، هو الذي جعلني عندئذ أتعمق في البحث؟ كنت أريد أن أقول لك شيئا لم أعد أذكره.. ولكن قبل أن أقول أي كلمة، كانت شفتاي قد سبقتاني وراحتا تلتهمان شفتيك في قبلة محمومة مفاجئة. وكانت ذراعي الوحيدة تحيط بك كحزام، وتحولك في ضمة واحدة إلى قطعة مني" (مستغانمي، 2010: 171، 172)، وفي مقام آخر: "أتأمل طويلا أصابعه، أشعر أنها في امتلائها وطولها تقول الكثير عن رجولته، وأن طريقته في تقليم أظافره باستدارة مدروسة، كأنه لا يريد أن يؤلم أحدا ولو عشقا، تطمئنني وتثير شهيتي للمسات حميمية" (مستغانمي، 2013: 96)

وقد تكون الكتابة فعلا مضادا، حين يلجأ الكاتب إلى الانتقاء من الواقع أجمل ما فيه أو أقبح ما فيه، فحين ينتقد (الطاهر وطار) الوضع الاجتماعي والسياسي في الجزائر ينتقي من المشاهد الذهنية التي عهدها ما يراه مناسبا للمعنى الذي يرمي إليه، باعتباره نموذجا ثقافيا، عايش أحداث الجزائر الدامية،

فإن كانت السياسة إحدى الطابوهات التي تقف حجر عثرة في وجه الكاتب إلا أن هذا الأخير لا يعدم الوسيلة التي تجعله يكشف الخبايا، ومن أبرز المعوقات الثقافية التي شلت الأذهان، سياسة التلقين التي ترسبت كعرف قار تداولته الأجيال، تلك السياسة التي شكل الفرد الجزائري من خلالها الفروض المسبقة، لاسيما فيما يتعلق بفهم الشريعة الإسلامية التي تختلط مع صور الخيال، والقصص الخرافية، كما ورد في الشمعة والدهاليز:" قررت من تلقاء نفسي أن ألتحق بالثانوية الفرنسية الإسلامية بقناعة داخلية بضرورة الإطلال على دهليز مظلم، يسلط عليه الفرنسيون الظلمة، ويحاول شيوخنا وعجائزنا، دون جدوى، في كل مرة إيقاد شمعة ما، للاستنارة بها، مرة يتحدثون عن السيد علي، ابن عم الرسول (صلعم)، ومرة عن السيد عبد الله، وأخرى عن فاطمة الزهراء، أو رأس الغول... تارة يحرمون كل شيء، وتارة يحللون كل شيء، كل المسائل بقيت قياسا" (وطار، 1996: 40).

وفي ظل الربط الاعتباطي بين الدين والتراث والثقافة الشعبية تولد سوء الفهم للشريعة الإسلامية، فسوء الفهم من أهم المعوقات الثقافية لأنه يعزز التطرف والعصبية.

أما في رواية جلاوجي، فقد كان الكاتب يعود في كل مرة إلى التراث العالمي لينتقي منه رموزا ثقافية، فشهريار هو الملك الظالم والرعية المظلومة هي عامة الناس من الدهماء، فللظلم وجوده الراديكالي المتجذر في القدم، فهو قديم قدم الإنسان، غير أن جلاوجي كان يلجأ إلى الأقنعة مخافة السلطة، كما في قصص كليلة ودمنة (لابن المقفع)، وهو يعرض المتاهة الثقافية التي يعيشها العامة من الناس، ويتجرعون المرارة فيها، إذن، لو كان النظام الحاكم في فترة التسعينيات في الجزائر عادلا وديموقراطيا لما لجأ هؤلاء الكتاب إلى الأقنعة والرموز، ولما غادر

الكثيرون الجزائر فرارا من التعسف والقهر والجبروت، أمثال (فضيلة الفاروق) و(أحلام مستغانمي) وغيرهما، إذن، تتحول السياسة في هذا السياق إلى معوق ثقافي يثبط عزيمة الكتاب.

وليس الدين ببعيد عن السياسة، لاسيما حين فشلت الأحزاب الإسلامية في الانتخابات التشريعية، فصار كل ما هو إسلامي يوضع موضع شك وريبة، فتغير مفهوم الدين، وأصبح مرتبطا بالجماعات الإسلامية التي ادعت احتكارها له، باعتبارها المنفذ الأول للشريعة الإسلامية، وما دون ذلك هم من الخونة والمنافقين، وكما اتهم الشعراء قديما بالزندقة، لم يسلم المحدثون من القذف والتجريح، لاسيما أولئك الذين نادوا بفصل الدين عن الدولة من العلمانيين واللائكيين، أمثال بوجدرة وواسيني الأعرج، ففي سيدة المقام يمنح (واسيني الأعرج) شخصية مريم راقصة الباليه هالة من القداسة، متحديا مقولات المتطرفين الإسلاميين الذين لا يعترفون بالفن.

3.المهمشون في الجزائر

1.3 البسطاء

لم تحدث القطيعة بين الخطاب التاريخي والخطاب الأدبي الذي اصطلح النقاد الثقافيون على وسمه بالثقافي، إذ كانت الروايات الجزائرية فترة السبعينيات مفعمة بحرارة النضال، فالحواس مازالت ملتهبة آنذاك، فكان من البديهي أن يضمن الكتاب رواياتهم تمثيلا للحماسة، فرواية الطموح تبرز ما كابده البسطاء العزل إبان الاستعمار، إذ كانت الطبيعة الجبلية القاسية حضنا دافئا لأولئك الذين أبوا إلا الاستماتة في الذود عن الأرض والشرف والكرامة، ويتجلى هذا المعنى من خلال شخصية خليفة ورفقائه، الذين صعدوا إلى الجبل لمجابهة الجنود الفرنسيين.

أما رواية "اللاز" فتؤسس لمرحلة تاريخية انتقالية في الجزائر، فـ"اللاز "هو الوريث الشـرعي لأمجاد الثورة، متمثلا في جبهة التحرير، ولا يغفل الكاتب المولع آنذاك بالفكر السـياسـي الحكيم في الجزائر ما عاناه قادة الثورة وزعماؤها وجنودها في سـبيل التحرر، فقد ورد في الرواية: "إنه يتذكر جيدا حين كانت الطائرات تقذف مئات القنابل تنفجر هنا وهناك وفي كل مكان، وكيف كان هو وكل أفراد عائلته يتراكضون في الحصائد كالمجانين والنيران تلتهب من تحتهم ومن فوقهم"، (وطار، اللاز، 1983: 30).

في هذا السياق تغيب فاعلية البسطاء من العامة، إذ حفلت جل الروايات بذكر القادة والزعماء، والتاريخ الجزائري يشـهد على ما كابده العامة وهم في بيوتهم من بؤس واضطهاد.

التحم الخطاب الروائي بالذاكرة الجمعية، لأن الرواية قد عكست حيثيات تلك المرحلة، وتبعاتها، ففي رواية ريح الجنوب يبين الكاتب على لسان شخصياتها، حين فجر الفرنسيون القطار فهلك كل من فيه (بن هدوقة، 2012: 71، 72).

ظل الشـعب الجزائري مضـطهدا لعقود طويلة من الزمن، متموضـعا بين المطرقة والسـندان، حالما آملا طامحا في غد جميل، تسـطع فيه شـمس الحرية، فيزول الطغيـان، وتنعتق النفوس فتخرج من جحيم الاسـتعبـاد، هـذا الحلم الجميل الذي أمل (وطار) وغيره في تحقيقه بعد الثورة ظل وهما.

يتجسـد هذا المعنى من خلال رواية الزلزال التي طمح من خلالها أن تحمل رياح التغيير بشائر غد أفضل، من خلال الزلزال الذي أحدثته الثورة الزراعية.

وقد ورد عن معاناة الجزائريين: "دخل الفرنسـيون المنطقة قتلوا كل قادر على حمل السلاح، وحبلوا النساء" (وطار، 1974: 243).

إن الشعب البسيط الساذج كان لقمة سائغة، ففي الزمن القديم تراكمت الأزمات السياسية والاجتماعية فوجد الاستعمار الفرنسي سبيله بحرا لدخول الجزائر، وممارسة مختلف أشكال الهيمنة والتعسف عليها، ولكن ذلك الشعب المستضعف قد أسهم بانكساره في تيسير مهمة الاحتلال، وكغيره من شعوب العالم كافح آمادا طويلة لنيل الاستقلال، وهذا ما جسدته الروايات الجزائرية في عقدي السبعينيات والثمانينيات خاصة، ولم تغفل الروايات الحديثة اللاحقة عن تجسيد صورة الشعب الجزائري، وهو يقبع في غياهب الظلم والقهر، وفي جسد الحرائق تمثيل لرمز المهاجر المضطهد في أرض الغربة، زمن الاستعمار، ولعل أبرز المفكرين الذين انكبوا على تجسيد هذه الصورة المعتمة من تاريخ الشعوب هو الفلسطيني (إدوارد سعيد)، والباعث الذي دفعه للكتابة هو نصرته للقضية الفلسطينية، ودفاعه المستميت عن الإسلام الذي لحقه التدنيس والتشويه، فصار مرادفا للعنف والتعسف، إذ لا يمكن التطرق لقضية الشعوب المضطهدة إلا بالعودة إلى المنظومة الخطابية المؤثرة (لإدوارد سعيد) أحد مؤسسي النقد ما بعد الكولونيالي، وقد بين إدوارد سعيد أن صورة الشرق إبان الحقبة الكلونيالية لم يبلغ حد الجهل تماما ولا حد العلم تماما، وينحصر الشرق في نظرهم في الثقافة الإسلامية. أما في العصور السابقة أي خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر فقد ساد الاعتقاد أن بلاد العرب تقع على حافة العالم المسيحي مصطلح ما بعد الكلونيالية ظهر ما بعد الحداثة، ومن بين أهدافه إعادة الاعتبار للهوامش والحواف التي زحزحها المركز لصالحه، ورسم معالم صحيحة لهوية جديدة تتلاقى فيها كل الثقافات والحضارات الإنسانية، ونبذ التفرقة الجنسية والعنصرية، بحيث يتمخض هجين من الهويات المتعالية عن مبدأ الهوية الخالصة المتميزة، والتمرد على المقاييس التي تجعل بعض الأنماط والبنى

تتحكم في مصـــائر أنماط ، وأنها ملجأ طبيعي للزنادقة والخارجين عن القانون، وأن الإسلام لا يزيد عن بدعة إيروسية. (سعيد، 2006: 119 إلى 128).

إن الإشـــكالية التي تطرح في هذا المقام هي إشـــكالية الذات، وعلاقة هذه الذات المضطهدة بالآخر، فليس الشعب الجزائري إلا نسقا بشريا في زمرة أنساق تتلاقى في المصائر التاريخية عينها، وكما تعرض هذا الشعب للهيمنة الاستعمارية، فقد تعرضـت شـعوب أخرى للهيمنة نفسـها، كما حدث في البلدان العربية مثل مصر وسوريا وليبيا وفي دول أخرى مثل كوبا والفيتنام وغيرها، إذ مارس الاحتلال تحيزا خطابيا، طمس الحقائق، ودنس المقدسات، بدعوى نقل الحضارة لشعوب بدائية لا تعرف قيم الحضـــارة والمدنية، ولعل أدب الرحلات كان المحرك الأول للنزعة الغربية المتعالية، إذ انتصر للغرب، وشوه صورة الشرق، فاعتبروا العالم الشـــرقي متخلفا رجعيا وبربريا، لا يمتلك أدنى الشـــروط الحياتية المجدية، وقد تمخض عن ذلك نظرة غربية متحيزة ذات أهداف إمبريالية توسعية، حيث وضع الغرب معاييرهم التقييمية الخاصـــة بناء على رؤيتهم للعالم، بل تمادوا فأعطوا الحق لأنفسهم في إقصاء الآخر إما باحتوائه وإلغاء وجوده، كما حدث في الجزائر، حيث اعتبر الاسـتعمار الجزائر قطعة من فرنسـا، وإما بإبادته واسـتئصـاله من جذوره كما حدث قديما حين أباد الأمريكيون شعب المايا في أمريكا الجنوبية، لقد ظلت الديمقراطية المسلوبة مطلبا شعبويا منذ العصور القديمة، فقد دحضت اليونان قيم الديمقراطية "كما في أثينا، فقد كان حق الانتخاب مرتبطا بحق المواطنة التي لم يتمتع بها إلا من كان من أبوين أثينيين، بالإضـــافة إلى اســـتحالة تطبيق الديمقراطية بوجود نظام طبقي تحتكر فيه الأقلية الثروة والسـلطة والوجاهة، بينما تعاني الأكثرية الفقر والحرمان". (إسماعيل، 2009: 75)

وفي السياق نفسه، احتكر الغرب مبادئ الديمقراطية ونسبوها لأنفسهم، ويشهد التاريخ أن الغرب "قد نادوا حديثا بالديمقراطية السياسية حتى غدا هذا المطلب مرجعا أوربيا حديثا" (الجابري، 2009، 340).

ويمتد أثير الثورة إلى الثمانينيات حين يعود بطل رواية رائحة الكلب بذاكرته إلى حادثة المروحة، وتذكره لحملة شارل كان على الجزائر سنة 1541م وفشله فيها (جلاوجي، 1985: 24،94).

لا شك أن الاستعمار الفرنسي أسهم بشكل كبير في تكريس التخلف، ولكن حين غزا هذا الاحتلال الجزائر هل وجدها دولة عظيمة متقدمة سياسيا وعلميا واجتماعيا؟ الجواب هو: لا، فالعالم الغربي الذي شهد الثورة الصناعية العظمى تمكن من تحقيق التطور المادي حتى كاد التاريخ أن يكتب نهايته، فصنع الآلات والأدوات التي تمكنه من الهيمنة، وزحزحة الآخر إلى الحواف والهوامش، كما عمل جاهدا على زعزعة ثقته بنفسه، حتى تعزز في ذاته أنه أدنى منزلة من الكلاب والقطط التي علت مكانتها عند الغرب.

بالرغم من كون الاستعمار الفرنسي من أبشع أنواع القوى المركزية الليبرالية إلا أن مهمته الاحتكارية السلطوية كانت أيسر بوجود هذا التطبيع المعلن والمضمر، حتى صارت الجزائر كلها تحت المداس، وظلت المؤامرة مستمرة إلى العصر الراهن، ففي رواية حمائم الشفق يحاكم الكاتب الحاضر من خلال التاريخ، فهذا الأخير لا يخلو من الخيانات المغرضة، التي مدت بخيوطها إلى العقود اللاحقة، حتى غدت المدينة الحالمة مرتعا للفساد، فلم يبق سوى التحسر "على تلك التخديدات التي وصمت بها حدائقها الغناء، وقد كانت أحدوثة العصور التاريخية الدامية لما عانته المدينة من محاولات المغتصبين لورودها ورياحينها" (جلاوجي، 1985: 86)، وكأن هؤلاء عقدوا عهدا مع الشيطان، وهم أنفسهم الخونة الذين يعيشون بين أحضان فرنسا الأم، فاختاروا المنفى على الوطن، لأن

الوطن لا يقبل الخونة، ولأن أرضه ستتقيأ هؤلاء لو داسوا ترابها، إذن، زمرة من الجزائريين كانوا ومازالوا سماسرة يتاجرون بالقيم الوطنية، ويبيعونها في سوق النخاسة، وحدهم أولئك الطامعون من الجزائريين من صنف الخونة المتواطئين، قد كسروا شوكة الوطن، وكرسوا المذلة والهوان، وما تخلفنا إلا حتمية أفرزها تاريخ هزيل، وماض ضبابي باهت الملامح، وهذا المعنى صوره (محمد مفلاح) من خلال شخصية حميدة الحركي وأمثاله ممن خانوا الجزائر، فصاروا وصمة خزي وعار (الانفجار،1984: 42، 43)، فهل نلوم الآخر على هذا التخلف أم نلوم أنفسنا؟

إذن، الجزائريون هم أنفسهم من حملوا في ذواتهم بذور الهزيمة والمذلة، حتى صنفوا من المهمشين والحواف، فكان وجودهم في الحقبة الاستعمارية مجرد قصعة من طعام يقتات منها الآخر كي يغذي كيانه، ويعزز وجوده، وقد رضي الشعب الجزائري طويلا بوضعه السياسي، قانعا بمصيره القدري، متمردا تارة بالثورات الشعبية، أو الخطابات السياسية، وأحيانا يقف متفرجا على الأحداث السارية في العالم، حرب بين السوفييت والأمريكيين، حرب بين ألمانيا والجيش الأحمر، وأخرى بين فرنسا وألمانيا، حروب متشابكة، دماء تسيل، شعوب مضطهدة، وأخرى عدوانية طاغية، فبين تلك القوى الليبرالية الشرسة تتموضع الجزائر كواحدة من الشعوب المهمشة المستضعفة، لذا كان التهميش والتجويع والتقتيل والتهديد والتدمير، كلها مفردات لمرجعية واحدة، أساسها العنف، وغايتها الإقصاء.

لا تختلف روايات التسعينيات من حيث استثمار مخزون الذاكرة الجمعية، وتمثيل حياة الجزائري آنذاك كرمز للتضحية ونموذج للمأساة الإنسانية، ففي ذاكرة الجسد تتحدث الروائية عن خالد الذي كان صبيا يافعا

أثناء الثورة، ومعاناة الثوار ومنهم والد أحلام، فقد ورد في الرواية: "وكان سجن الكديا وقتها ككل سجون الشرق الجزائري يعاني فجأة من فائض رجولة، إثر مظاهرات 8ماي 45 التي قدمت فيها قسنطينة وسطيف وضواحيها أول عربونا للثورة، متمثلا في دفعة أولى من عدة آلاف من الشهداء الذين سقطوا في مظاهرة واحدة، وعشرات الآلاف من المساجين الذين ضاقت بهم الزنزانات، مما جعل الفرنسيين يرتكبون أكبر حماقاتهم، وهم يجمعون لعدة أشهر بين السجناء السياسيين وسجناء الحق العام، في زنزانات يجاوز أحد نزلائها العشرين معتقلا" (مستغانمي، 2010، 30).

وبالرغم من سياسة التعذيب تمكن الشعب الجزائري من التغلب على الخوف والرهاب من الاحتلال، ففي البدء ظنوا أنهم لن يقهروا خرافة الجيش الاستعماري، غير أن معاشرتهم ومخالطتهم للفرنسيين والمستوطنين قد رسخت اليقين في ذواتهم بأن هؤلاء ليسوا إلا بشرا مثلنا، لا يختلفون في طبيعتهم البيولوجية والنفسية عنا.

من هذا المنظور، ترتقي الرواية لتصبح بديلا عن الملحمة، ولتعكس حقيقة الصراع الطبقي، لأن "الرواية بحسب لوكاتش، تحل محل الملحمة. ففي حين تعبر الملحمة عن العالم الديني، حيث يعيش الأبطال والآلهة أندادا بعضهم لبعض بلا إشكاليات ودون أثر للوعي الذاتي، فإن الرواية تعبر عن عالم ساقط، هجره الإله، فالأبطال قد تحولوا إلى رجال ونساء علمانيين عرضة لضروب الانخلاع الداخلية، والضياع، وجنون ما يدعوه لوكاتش بالتشرد المتعالي" (سعيد، 2007، 343).

إن نزعة التهميش والإقصاء لتلغي سلطة العقل والحواس، بل تجعل المستعبدين والمهمشين من الشعوب عميانا لا تعنيهم سوى حاجاتهم البيولوجية، ساعين إلى الخلاص الروحي من براثن العدوان، وبوجود نزعات خلاصوية بمعنى

إنقاذ أناس ضـــائعين، وإن كان دريدا يقصـــد الضـــياع اللغوي، إذ يرى "إمكانية العدول عن محاولة بلوغ شـــروط مثلى للإبقاء على لســـان معين بأي ثمن كان، ويطرح التساؤل: ماذا لو رجحت الكفة لصالح إنقاذ الناس على حساب ألسنتهم؟ ويرى دريدا أنه يتوجب على بعض المهمشين والمستعبدين أن يتعلموا لغة الأسياد لغة المال والآلات بل إنهم يطالبون بإلغاء لغاتهم كي يصـــمدوا أو يعيشـــوا حياة أفضـــل" (دريدا،2007: 63، 64)، هذه النزعة التي تدعو العالم إلى إنقاذ ما يمكن إنقاذه من البشـــر من التعســـف والهيمنة، ليس بالإدماج والاحتواء بل بإثبات أحقية الشعوب في تقرير المصير، دون الحاجة إلى الوصاية أو الحماية.

أما (جلاوجي) فيصـــور الجزائر كمدينة غارقة في الوحل، ويتســـاءل عن الحال الذي آلت إليه، ونعتها بأقبح النعوت، فهي المدينة المومس الممســـوخة التي كانـت ومـازالـت مطيـة للراكبين من الغزاة والمحتلين، وتـاريخهـا تغمره الـدمـاء الفاسدة (جلاوجي، 2000: 11، 12).

لقد مورســـت على الشـــعب الجزائري شـــتى أنواع التعذيب، هذا التعذيب الذي ينم عن شـــوفينية وغطرســـة ونزوع حيواني شـــرس، ومهما خيمت الظلمات وازدادت الخيبات يظل الأمل شمعة في دهاليز الحياة.

تمخض الديكتاتورية موجة من العنف والدم، كما ورد في الرواية "سراديب كثيرة انفتحت في دهليزه، انبعثت منها قضـــايا ومســـائل ونظريات ويقينيات كثيرة جعلتـه يحجم ويكتفي بـالوقوف مع جـدار بنـايـة في منجى من قنـابـل الغـاز والرصاصات المنبعثة مغردة من حين لآخر، متأملا ملامح الشبان... هؤلاء جماهير كادحة... هكذا نزعوا ســـراويلهم، وارتدوا الجلابيب، وأطلقوا اللحى، واســـتســـلموا لسرداب من سراديب الماضي يمتصهم" (وطار، 1996: 15).

ولم يتغير الوضع في عهد التعددية الحزبية، فقد ظل عامة الشعب من الدهماء يدفعون ثمن خطايا غيرهم، وهم الغالبية العظمى في الجزائر التي لا تطمح في نيل منصب سياسي رفيع أو سلطة تحكمية تنفيذية، بل أبعد طموحاتها هو العيش الكريم، الهادئ بمنأى عن الخصومات والنزاعات والغايات المغرضة، وهو الحلم الذي لم يتحقق.

وفي كراف الخطايا يحاكم الكاتب التاريخ الذي خلف النكبات والهزائم، وأجج نار الأحقاد الدفينة المغروسة في نفوس الطبقات المهمشة، فالتاريخ يكتبه الأقوياء، من ذوي النفوذ والسلطة، فيخاطب منصور صورة أبيه "لا تغمض عينيك أكثر، أنا من حملت في صلبك، فانظر إلي ولا تشح بوجهك عني، كان حتما علي أن أنهزم أمام الشيطان، ليس لي من سلاح سوى استغفار فقد حرارته وماءه، تتحرك به شفتاي دون أن يتحرك به قلبي، هكذا علمتنا المدارس والشوارع والحانات" (لحيلح، 2001: 91).

ويستمر خطاب الذاكرة في الرواية المعاصرة مع رواية سيدة المقام، حين يعيد التاريخ نفسه، "أريد أن أتحرر من هذه الذاكرة المثقلة بالحنين والأوجاع، يجبرني الشارع والأنواء على التآلف مع الموت، ومع وجه الله، لكني أستعصي على كل الأشياء، لم تبق لي سوى الإغفاءة الحزينة، ثم أنسحب بعدها باتجاه غيمة تطوق الدنيا ثم تعود إلى مكانها الأول لتمطر" (الأعرج، 2006: 13).

التحم الماضي بأوجاعه مع الحاضر، ليستمر هدر الكرامة الإنسانية، وبأقبح السبل.

يسرد (واسيني الأعرج) تاريخ شعب مضطهد من خلال البيت الأندلسي الذي يرمز إلى الجزائر التي امتزجت فيها الأعراق واللغات وشهدت حضارات وثقافات وأديان مختلفة، "من أين أبدأ هذا الجرح يا سيكا؟

أمن الدار أم من سقم أصبح يشبهنا في كل شيء؟

هذه الدار، الخربة الرومانية، البيت الأندلسي، كازا أندلوسا، دار لالة سلطانة بلاثيوس، دار المحروسة، دار لالة نفيسة، دار زرياب، إقامة الإمبراطور، ملهى الضفاف الجميلة، كلها أسماء صاحبت البيت الأندلسي عبر حقب مختلفة كثيرة، أذكر بهذا، وأنا لم أعد مهتما كثيرا بالأسماء، ولا حتى بالبيت، فهو يشبهني في كل شيء، في عزه وألقه، وعنفوانه، وفي هشاشته، وتآكله وخرابه أيضا، وحتى في احتراقه وموته العنيف" (الأعرج، 2010، 27، 28).

يبين الأعرج أن اليهود جزء من المدينة، فقد سكنوا البيت الأندلسي أيضا، وفي هذا السياق أوضح (فرانز فانون) أن بعض اليهود كانوا يفضلون بقاء الاستعمار الفرنسي، خاصة التجار والسماسرة، لأنهم كانوا يخشون زوال الامتيازات بعد زوال الاستعمار، لذا عزفوا عن دعم القضية الجزائرية، كما بين (فانون) أيضا أن البعض الآخر دعم الثورة، فكانوا آذان الثوار وأعينهم، وساعد البعض الآخر بالأموال (Fanon ،2012 :53).

تبلغ المأساة ذروتها في دمية النار حين ينحدر الإنسان الجزائري إلى متاهات عميقة، "نحن أبناء التعاسة، لقد جئنا للحياة كي ترفضنا السماء، وتسحقنا الأرض" (مفتي، 2010: 42).

وأيضا: "صرت أنتظر من الفراغ فراغات أكثر، صرت لا أقدر على التمسك بأي شيء، كان وقتي يذهب هباء منثورا، وعمري يتقلص في المشي والنظر بلا مبالاة لخطوات الناس التي ظلت تبدو لي تعيسة، الوجود مجرد نفثة خيال مسعور لشخص مريض" (مفتي، 2010: 43).

أدرك (بشير مفتي) أن الزمن يعبث بالحياة كلها، وكأن القدر وضع المجتمعات المتخلفة في رحى لا ترحم، فكلما طاب جرح ظهرت جروح وندوب لا تندمل، إنها تراجيديا حزينة لشعب ظن أنه انتصر في حومات الوغى، حين تغلب

على مستبد طغى، فإذا به يجابه عدوا أطغى، ليذكرنا بواقع أمر، في زمن نعيشه اليوم بهمومه ومآسيه، حيث تكدست الشهادات وتكدست معها أماني شباب طموح، لتتحول في النهاية إلى أضغاث أحلام، فصناع القرار ممن احتكروا النظم، قد تحولوا إلى قوة مركزية، فلم يعد أمام البسطاء المهمشين سوى التكيف والإذعان، وإما الهجرة والهروب، وإما الجنون واللامعقول.

وورد أيضا: "مسألة عويصة أن يتأسس كل العالم على الظلم، وخطيرة أن يكون الشر أقوى، ألا يكون الخير إلا بذورا ضائعة هاربة منه، وأن كل العالم خرج مكلوما، وألم متواصل عبر القرون والقرون، لا شيء تغير منذ أبدية البداية، ولا أظن أن شيئا ما سيتغير" (مفتي، 2010: 80).

يضمن (بشير مفتي) خطابه الروائي محاكمة للذات، وتقص للأزمة الجزائرية من الداخل، وإن لم يدع الكاتب صراحة إلى حتمية التغيير لقلب الأوضاع، فإنه يدعو إليها ضمنيا، لأن القراءة المثمرة للنص تفضي إلى حقيقة ما يحدث، إذ صار من الضروري البوح والاعتراف بحالة التهميش التي يعيشها المجتمع الجزائري بأسره.

2.3 المقهورون

صورت الروايات الجزائرية في مختلف أحقابها الزمنية حالة الفقراء في المجتمع الجزائري، سواء أولئك الذين ولدوا وعاشوا فقراء طيلة حياتهم حتى قبل الحكم الاستعماري، أو أولئك الذين جردوا من أموالهم وبيوتهم لصالح المستعمرين أو المستوطنين، فروايات السبعينيات تسرد تاريخا مريرا من التعسف ضد هؤلاء المعوزين والفقراء، أولئك الفقراء الذين أملوا في مستقبل أفضل بعد الاستقلال، وهذا ما حاول الكتاب كشفه، فقد كانوا معولين على الثورة الزراعية، وعلى النظام الاشتراكي طامحين إلى الارتقاء بحياة الكادحين من العمال، ساعين إلى رد الاعتبار لهم بالقرى الاشتراكية، وتوزيع الأراضي الفلاحية،

وتقويض الإقطاعية، فقد ورد في رواية ريح الجنوب: "أعرف أن الماء قليل، ولكن من المسؤول عن قلته؟ أليست البلدية؟ ... تبسم الحاج قويدر... وقال: إذا نظم توزيع الماء فذلك يعني غرامة جديدة، وهم لا يستطيعون حتى دفع ثمن الخبز، إن الناس فقراء يا ولدي.... حرك الحاج قويدر رأسه... وقال بلهجة المرشد:

منذ خلقت الدنيا، فيما نعرف، والفقير هو المسؤول عن فقره" (بن هدوقة، 2012: 94، 95).

غير أن الكتاب الذين ناصروا الثورة الزراعية وناصروا الفقراء انعطفوا عن مسارها حين فشل المشروع الإصلاحي الموعود.

كما لم يغفل الروائيون ما عانته الطبقة الفقيرة في عهود الأنظمة التعسفية، وليس الفقر بالأمر الهين، فهو ينهش جسد صاحبه، ويدفعه إلى الجحود والانعزال وخيبة الرجاء، فالفقر كاد أن يكون كفرا كما قال عمر بن الخطاب، فالفقراء لا يفكرون إلا في خبز يومهم، ففي ريح الجنوب تبدو شخصية الراعي كنموذج للبؤس والعوز، لاسيما في المناطق المعزولة والنائية كالبوادي والأرياف، "كل الأعمال في القرية تسمح لأصحابها بعطل تبلغ الشهور، بينما مهنة الراعي هي مهنة العمل الدائم، ليس رابح وحده الذي لا يفقه معنى العطلة بل كل الرعاة أمثاله ... لو كان سكان القرية تعودوا منذ صغرهم على الحياة مع أرضهم في كل الفصول... لتبدل فقرهم بسعة من العيش" (بن هدوقة، 2012: 130).

الرعي مهنة الأنبياء فقد كان النبي محمد (ص) راعيا، وسيدنا موسى عليه السلام أيضا، فهي المهنة التي تعلم الصبر والجلد غير أنها تظل حرفة الكادحين. كما ورد في الرواية أيضا: "لم يكن الطاهر يعرف لغة أخرى غير العربية، لم يكن زملاؤه الذين يفكرون تفكيره يعرفون غيرها، كان الطاهر أيام التعلم والتعليم ذا سلوك كله وداعة... وكان راضيا كل الرضى **بعمله** في المدرسة، فهو يتقاضى عشرة

آلاف فرنك شهريا، وكان أبوه يملك أرضا تكفي لعيشتهم الريفية البسيطة" (بن هدوقة، 2012: 86).

المعلم الذي يزاول مهنة سامية تنتفي قيمته في عالم متخلف، وبالرغم من اهتمام الدولة بسياسة التعليم آنذاك إلا أن المعلم ظل يعاني كغيره من الكادحين من الحاجة، لأن الراتب الذي يتقاضاه لا يفي بمتطلباته.

وورد أيضا: "ذهبت في الصباح إلى المدرسة وأنا غير مسرور، وقضيت ساعتين في القسم وانأ أحس أني غير موجود، وقد تقت إلى الفرار والهروب من كل ما أعرف ومن كل ما يمت إلي بصلة حتى أني أصبحت أرى المعلم والتلاميذ في صورة بهائم تبعث في السأم والمرارة" (عرعار، 1978، 73).

فالمعلم في الجزائر لا يؤدي وظيفة المثقف، بل ينحصر دوره في مجرد ترديد القوالب الجاهزة بطريقة أكاديمية، لذا ينزوي المعلم في ركن ضيق، لأنه ليس عضوا فاعلا ومحركا في المجتمع، وهذا ما تفضي إليه رواية الزلزال من خلال شخصية بولرواح، الذي تلقى التعليم على يد جمعية العلماء المسلمين، ونصب نفسه واعظا ومصلحا مبررا رفضه للثورة الزراعية بكونه الأدرى بمصلحة البلاد والعباد، لاسيما بعد أن ترقى وصار مديرا للثانوية "قرأنا العلم وجالسنا العلماء، وكافحنا مع الشيخ ابن باديس تغمده الله برحمته الواسعة وتفقهنا في المذاهب الأربعة ولم نعثر على هذا المنكر" (وطار، 2007: 9).

وفي السياق نفسه، يعزز (واسيني الأعرج) دعمه للانفتاح من خلال رواية جسد الحرائق، فيبرز مظاهر الرجعية من خلال شخصية الأستاذ الجامعي المتزمت، ومظاهر التحضر من خلال شخصية مريم التي لا تهاب ارتياد عتبات المحظور: "أتذكر أنهم ذات يوم كسروا انطلاقك وأنت تبحثين عن إجابة في مادة علوم التربية، عندما كتبت بحثا عن أطفال الملاجئ، ... كان حماسك كبيرا في المدرج، ولكنك في الأخير رسبت. ظننت أن الأستاذ الوطني جدا كان يمزح، غسلك

يومها بعنف شـديد، بقيت مدة مسـطولة من كلامه، هذا ليس رأيا خاصـا، هذه رائحة الدعارة. أنت تدافعين عن مخلوقات بائسة وضعها الله في أدني المراتب لأنها لا تستحق رتبة الإنسان الذي كرمه رب العالمين"(الأعرج، 2010: 50).

إن المجتمع الذي يسوده الخمول والروح الانهزامية على مختلف الأصعدة، يحول الشـباب من طاقة فعالة إلى معول هدم، وأول ما يبدأ بهدمه هو ذاته، وحين ينتهي منها يتحول إلى أسرته ثم إلى مجتمعه، وهذا ما حاول الروائي كشفه؟

إن المجتمع الذي يلوم الفقير المعدوم، على نسـبه المجهول، وعلى فقره ليسـتفز مشـاعره وانفعالاته إلى التصـرف بجنون وتطرف، إذ يحاول أن يصـلح العطب الذي أصاب حياته بتعذيب الآخرين، حتى ينسى عاهاته وعيوبه، غير أن المقاييس اختلفت لما أدركوا أنه ابن المناضـل البطل زيدان، فاعتدلت الموازين، واعتدل معها مزاجه، وأعاد النظام إلى حياته، فصـار البطل المتفرد في مجتمعه، وورد في الرواية: "يا ابن عمي هذه والله ما هي خبزة، أربعون دورو في اليوم، وأربعة عشـر فما مفتوحة، الدقيق بعشـرين دورو الكيلو، والزيت بأربعين، والصـابون خمسـة عشـر، معيشـة كلاب والله" (الأعرج، 2010: 18)، فإذا كان الفقراء مهمشين في عهد الاستعمار، فإن فقرهم ولد فتيل الثورة التي حررت الجزائر.

5. خاتمة

يبدو جليا من خلال نقد الثقافة ما تضـمره الرواية من أنسـاق تعكس الأمراض الاجتماعية المتجذرة في العقول في ظل غياب سـلطة الوعي والمنطق، لذا تعد الرواية الجزائرية انعكاسـا لأزمة ثقافية، إذ حالت المعوقات الثقافية من إحداث تغيير حقيقي في المجتمع، لذا طفا على سطحه فئة عريضة من المهمشين والمقهورين الذين وجدوا أنفسـهم تحت المداس، بهذا المعنى تحررت الرواية من

كونها ذلك الجسد اللغوي المتشكل من بنى وأنظمة لسانية لتتحول إلى خطاب ثقافي واجتماعي.

يفترض على الباحثين في ميدان الأدب أن يستفيضوا في تحليل الروايات الجزائرية، لأنها تمتلك من الرواء والخصوبة ما يثري حقل النقد وما يعري الحقائق التي زيفت، لأن الرواية تسبر أغوار النفس البشرية، فشخصياتها الورقية الافتراضية هي نماذج إنسانية تتشابك خيوطها، فتعكس عيوب المجتمع وفجواته وانكساراته، وتنير المواطن المعتمة فيه.

6. قائمة المراجع

- الجابري، محمد عابد. (1996). *الدين والدولة وتطبيق الشريعة* (ط1). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- الجابري، محمد عابد. (2009) *بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية* (ط9). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- إسماعيل، محمود. (2009). *المهمشون في التاريخ الأوروبي*(ط1). القاهرة: دار رؤية.
- الأعرج، واسيني. (2010). *البيت الأندلسي*(ط1). بيروت: منشورات الجمل.
- الأعرج، واسيني. (1010). *جسد الحرائق*(ط1). بيروت: منشورات الجمل.
- الأعرج، واسيني. (2006). *سيدة المقام*. سوريا: دار ورد.
- الفاروق، فضيلة. (2005). *اكتشاف الشهوة*(ط1). لبنان: رياض الريس.
- بن نبي، مالك. (1986). *شروط النهضة*. ترجمة عبد الصبور شاهين. دمشق: دار الفكر.

- بن هدوقة، عبد الحميد. (2012). *ريح الجنوب*. الجزائر: دار القصبة.
- بوجدرة، رشيد. (1984). *التفكك*. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- جلاوجي، عز الدين. (2000). *سرادق الحلم والفجيعة* (ط1). الجزائر: دار هومة.
- جلال، محمد نعمان. (2004). *الإستراتيجية والدبلوماسية والبروتوكولبين الإسلام والمجتمع* (ط1): بيروت. المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- خلاص، جيلالي. (1985). *حمائم الشفق*. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- خلاص، جيلالي. (1985). *رائحة الكلب*. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- دريدا، جاك. (2008). *أحادية الآخر اللغوية* (ط1). ترجمة . بيروت، الجزائر: الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف.
- لحيلح، عبد الله. (2001). *كراف الخطايا*، الجزء الأول. الجزائر: دار الوسام العربي.
- لحيلح، عبد الله. (2010). *كراف الخطايا*، الجزء الثاني. الجزائر: دار الوسام العربي.
- عرعار، محمد. (1978). *الطموح*. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر.
- سعيد، إدوارد. (2006). *الاستشراق* (ط1)، ترجمة محمد عناني. القاهرة: دار رؤية.

- سعيد، إدوارد. (2007). *تأملات حول المنفى*، ترجمة ثائر ديب. لبنان: دار الآداب.
- سعيد، زايد، وآخرون. (1983). *المعجم الفلسفي*. القاهرة: الهيئة العامة للمطابع الأميرية.
- مستغانمي، أحلام. (2010). *ذاكرة الجسد*(ط26). بيروت: دار الآداب.
- مستغانمي، أحلام. (2013). *فوضى الحواس*(ط23). بيروت: دار الآداب.
- مفتي، بشير. (2010). *أشجار القيامة*(ط1). بيروت: الدار العربية للعلوم.
- مفتي، بشير. (2010). *دمية النار*(ط1). بيروت، الجزائر: الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف.
- وطار، الطاهر. (2007). *الزلزال*. الجزائر: دار موفم.
- وطار، الطاهر. (1996). *الشمعة والدهاليز*. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- وطار، الطاهر. (1983). *اللاز*. مصر: دار ابن رشد.
- Frantz, Fanon (2012). *L'an V de la révolution algérienne*. Algérie: Ed-Talamtikit.